ملامح النظرية السياقية عند الإمام الشاطبي (ت 790 هـ)

أ. لعبيدي منيرة

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

أ.د/ عيساني عبد المجيد

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص :

تعد النظرية السياقية من أهم نظريات البحث اللغوي الحديث و المعاصر ، فهي ثمرة من ثمرات اللسانيات ، ومحور هام من محاور علم الدلالة و علم التداولية ، ذلك أن المعنى هو المعوّل عليه في تحديد مقصديه كل من الخطاب و المتكلم . وبالعودة إلى التراث اللغوي العربي القديم نجد أن هذا الموضوع ،وهو (ظاهرة السياق)، متجذر في مصنفات أعلامنا القدامى ، خاصة علماء الأصول، الذين اهتموا بمقصديه النص القرآني وفي مقدمتهم الإمام أبو إسحاق الشاطبي ، الذي أبدع في هذا المجال بشقيه اللغوي والاجتماعي وهو ما يجعلنا نعتبر هذه الظاهرة فكرة أصيلة في البحث اللغوي العربي القديم ،نؤكد حقيقتها في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: السياق; المقصدية ; المعنى; معهود العرب; التخاطبية ; السياق المقامي; السياق المقالي

abstract

The theory of the most important contextual theories of modern and contemporary linguistic research, they are the fruit of the fruits of linguistics, and an important axis of

the axes of semantics and the knowledge of deliberation, so that the meaning is invoked for determine Mqsidih both the speech and the speaker. both return to the ancient Arab linguistic heritage, we find that this subject, which (context of the phenomenon), rooted in the works of our ancient flags, scientists of private assets, interested text Qur'anic Qur'an, led by the Imam Abu Ishaq Shatibi, who has excelled in this field: linguistic and social, What makes us consider this phenomenon as an original idea in the old Arabic linguistic research, we confirm its veracity in this article.

توطئة:

لقد كان لعلماء علم الأصول مساهمات جليلة لا يستهان بها في المجال اللغوي ، بل إن ما جادت به قرائحهم ،في هذا المجال ، يكاد يفوق ما جادت به أنامل أهل هذا الاختصاص ، ذلك أن محور الدرس عندهم ،هو استنباط مقاصد النص القرآني وبيان معانيه من خلال " تتبع الوجوه و الأغراض المختلفة للأساليب والتراكيب اللغوية وما تؤول إليه في سياقاتها المختلفة "[1].

ومن العلماء الأصوليين الذين اهتموا بالمعنى ودوره في تحديد الدلالة المقصودة من الخطاب ، **الإمام أبو إسحاق الشاطبي (730هـ 790هـ)** ، هذا العالم الفذ الذي أحدث ثورة تجديدية في مناهج البحث الأصولي ،إذ قفز بها من المعيارية إلى البرهانية التي تركز على المنهج الرياضي في التحليل ، ليس هذا وحسب ،بل كانت له مجهودات متميزة في البحث اللغوي ، فاقت النظريات اللغوية الحديثة ، وفي مقدمتها نظرية السياق ، التي تجلت معالمها في نظريته المسماة ب"معهود العرب " ،والتي تركز على الوظيفة الاجتماعية للغة ،ووظيفة السياق الحالي (المقامي) في تحديد مقصدية النص القرآني

وعليه ، نطرح السؤال التالي : **ما هي ملامح النظرية السياقية عند الإمام الشاطبي ؟**

لكي نعرف مدى نضج هذه النظرية عند الإمام الشاطبي ، ومدى مقاربتها أو تفوقها على نظيرتها في البحث اللغوي الغربي ، يجب علينا- أولا- إعطاء لمحة توضيحية لهذه النظرية و أسسها في الفكر اللغوي الغربي على اعتبار أنه الأسبق في رسم معالمها و أبعادها.

أولا :النظرية السياقية في الدرس اللغوي الغربي الحديث:

لقد شغل السياق في البحث اللغوي المعاصر حيزا واسعا ،واستحوذ دوره في تحديد المعنى على انتباه الباحثين ،واستأثر باهتمامهم حتى صار نظرية متكاملة ترتبط بجهود علماء كثرين يأتي في مقدمتهم عالم اللغة الانجليزي **فيرث (firth)** الذي وضع أهمية كبيرة للوظيفة الاجتماعية للغة [2].

إن السلوك اللغوي العادي ،يعد – في معظمه – عند فيرث جزءا من العملية الاجتماعية ،وهو ما جعله ينظر إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة فيما بينها ،فهو ليس وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة ،ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع ،فالجمل تكتسب دلالاتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث المحيطة بها أي من خلال سياق الحال،وهذا يعني أن المعنى - عند فيرث - لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ،أي وضعها في سياقات مختلفة [3].

وعلى هذا، عرف ستيفن أولمان السياق على أنه ينبغي أن يشمل الكلمات و الجمل الحقيقية السابقة و اللاحقة ،ويشمل أيضا النص كله ، والكتاب جميعه ، كما ينبغي أن يشمل كل ما يتصل بالكلمة من ظروف و ملابسات ،و العناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة ،لأن لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن [4] . و هذا يعني أن دراسة معاني الكلمات تقتضى تحليلا للسياقات و المواقف التي ترد فيها ، حتى ما كان منها غير لغوي .[5]

إن اهتمام فيرث بدراسة جانبي السياق ،وهما :السياق الداخلي للحدث الكلامي ،و السياق الخارجي الاجتماعي ،و العلاقة بين المرسل و المرسل إليه ،جعله يتبنى منهجا علميا في دراسة المعنى يقوم على ثلاثة أركان رئيسة، هي:

أ-الاعتماد في التحليل اللغوي على سياق الحال أو المقام وما يتصل به من ظروف و ملابسات.

ب - تحديد بيئة الكلام المدروس ،حتى لا يختلط بين بيئة و أخرى .

ج- تحليل الكلام إلى عناصره الأولى،لكي نصل إلى المعنى بما فيه من تحليل صوتي وصرفي ونحوي،ومدى الترابط بين هذه المستويات.[6]

ومما سبق يتبن لنا أن قيمة النظرية السيّاقية تكمن في جانبها الاجتماعي ،ذلك أن العناية بالجانب اللغوي وحده في تحديد المعنى المقصود من الخطاب ،لا يفيد ،لأنه خال من محتواه الاجتماعي والثقافي ،الذي له أهمية كبيرة في الإحاطة بمراد الخطاب المقصود.ومن ثمّ فإن الوصول إلى المعنى المقصود ،يتطلب معرفة جانبين هما :السياق اللغوي أو المقال ، وسياق الحال أو المقام.

ثانيا:ملامح السياق عند الإمام أبو إسحاق الشاطبي:

لقد أولى الأصوليون السياق عناية كبيرة ، لما له من ارتباط وثيق بماهية علم أصول الفقه ، إذ اعتمدوا عليه في استنباط الأحكام الشرعية من النص القرآني ، وهذا يعني أن اهتمامهم به كان نابعا من محاولاتهم الجادة للوقوف على مقاصد الخطاب الشرعي ، وهو ما جعل جهدهم في هذا المجال يتميز بالجودة والإتقان حتى صار يضاهي جهد المحدثين[7]، بل يفوقه أحيانا.

لذا يعد الأصوليون – على اختلاف اتجاهاتهم وانشغالاتهم – السبّاقون في الاهتمام بهذا المصطلح ،إذ اعتمدوا في دراستهم للنص القرآني ،وبيان معانيه و دلالاته على جانبي السياق وهما:السياق اللغوي الكلي أو ما يسمى بسياق النص ،و سياق الموقف أو ما يسمى بسياق الحال.

والمتتبع لمسألة السياق عند الأصوليين ،يجدها قد انتهت إلى جملة من الحقائق المتصلة بهذه النظرية ،والتي استقرت عليها مناهج البحث اللغوي المعاصر ،والتي مفادها مراعاة مبدأ التعامل مع النص كلا واحدا لا يتجزأ ،مع مراعاة ما يتصل به من ظروف و ملابسات.

وهذه الحقيقة المنهجية ،كانت واضحة لدى الإمام الشاطبي (ت790هـ) ،والذي تأكدت لديه أهمية الوعي بالظروف و الملابسات المحيطة بالنص ،فضلا عما توصي به الدلالات اللغوية لمفرداته و مكوناته العامة [8]. وانتهى به ذلك إلى القول بأن :"المساقات تختلف باختلاف الأحوال و

الأوقات ،و النوازل ،وهو ما يقرره بوضوح علم المعاني و البيان ...ومن هنا لا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، و أوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ،فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل إلى مراده ،فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد ، وهو النظر في فهم الظاهر ،بحسب اللسان العربي وما يقتضيه ،لا بحسب مقصود المتكلم ، فإذا صحّ له الظاهر على العربية ، رجع إلى نفس الكلام ، فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد "[9].

وعند استقرائنا لجهد الشاطبي في هذه المسألة ، تبين لنا أنه أضبط وأشمل مقارنة بما ورد عند غيره من الأصوليين [10]، فقد بين أن الألفاظ والتراكيب تتعرض بسبب السياقات المختلفة إلى ألوان من التغير الدلالي [11]، لأنها مرتبطة بالاستعمال ، ووجوه الاستعمال كثيرة ، ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان [12].

ومن ثم يمكن تحديد **معنى السياق عند الشاطبي** على أنه:كل ما يحيط بالنص من عوامل داخلية وخارجية تأثر في تحديد معناه ، وهو بذلك يشمل ترتيب الألفاظ وتنسيقها ، السوابق واللواحق ، حال المخَاطب والمخاطَب ، الغرض الذي سيق له النص ، والجو الذي نزل فيه.

ومن هذا التعريف ، نصل إلى أن **عناصر السياق أو قرائن السياق** عنده تشمل ما يلي:

1-اختيار اللفظ المناسب للمعنى ، وترتيب هذه الألفاظ وتتابعها.

2-تفاعل اللفظ مع غيره من الألفاظ.

3-الظروف البيئية المحيطة بالحدث الكلامي ، وتشمل الإشارات والإيماءات والحركات.

4-الارتباط النفسي ، ويتمثل في حالة المتكلم وانفعالاته أثناء الكلام إلى جانب حالة السامع وتفهمه لسياق الكلام.

5-إضافة إلى خصوصية النص الشرعي وما يتعلق به من أسباب النزول ، والبيئة التي نزل بها النص مع ما لها من أعراف لغوية اتفق عليها بين المتكلمين بها [13].

وكما هو بين فإن قرائن السياق عنده تنقسم إلى نوعين : قرائن مقالية (لغوية)، وقرائن مقامية (غير لغوي)، ومنه فإن السياق عنده ينقسم إلى : سياق مقالي ، وسياق مقامي.

1-**السياق المقالي**:

وهو السياق اللغوي الداخلي " الذي تمثله بنية التراكيب اللغوية بأصواتها ، وكلماتها ، وجملها ، وعباراتها "[14] ، لتشكل النص. وقرائنه هي: دلالات الألفاظ ، والتراكيب النحوية ، والنظم.

ومادام السياق عند الشاطبي مرتبط بالنص القرآني ، فقد تنوع السياق المقالي عنده على النحو الآتي:

أ. **السياق (الوضعي)**:وهو سياق لغوي ينظر في دلالة الكلمة على مستوى اللفظ المفرد وعلى مستوى التركيب ، ويشمل عنده الأنواع التالية:

1-السياق القياسي : ويقصد به السياق اللغوي في وضعه الإفرادي ، والقاعدة هنا أن فهم اللفظ في الكلام لا يتم إلا برد أوله على آخره ، والنظر في أحواله وأطرافه [15].

2-**السياق الاستعمالي:** ويقصد به السياق اللغوي في وضعه الاستعمالي ، والقاعدة في الأصول العربية أن الأصل الاستعمالي إذا عارض القياسي كان الحكم للاستعمالي . و ينقسم عنده إلى:

- **سياق لغوي في وضعه الاستعمالي العربي:** وعمدته اعتبار مقاصد اللسان التي هي ملاك البيان ، وفي ذلك يقول مستشهدا بقول عمر بن الخطاب : "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم".[16]
- **سياق لغوي في وضعه الاستعمالي الشرعي:** وهو مقدم على الاستعمالي العربي ، " لأن نسبة الوضع الشرعي إلى مطلق الوضع الاستعمالي العربي كنسبة الوضع في الصناعات الخاصة إلى الوضع الجمهوري كما تقول في " الصلاة " إن أصلها الدعاء لغة، ثم خصصت في الشرع بدعاء مخصوص على وجه مخصوص ، وهي فيه حقيقة لا مجاز. "[17]

ب-السياق النصي: وهو سياق مرتبط بالنص القرآني ، ويشمل الآيات ، والنصوص المتتالية ، كما يعتبر السورة القرآنية سياقا لغويا واحدا، والقرآن والسنة وحدة متكاملة يفسر بعضها بعضا

[18]-.فهو سياق ينظر في " تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية ، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود ، دون انقطاع أو انفصال"[19].ومنه فإن أنواع هذا السياق –والتي يمكن استنتاجها من كتاب الموافقات - هي كالآتي:

1-**سياق القرآن:**ويتضح ذلك من خلال حديثه عن الوحدة الموضوعية في القرآن ، إذ بين أن فهمه يتوقف على فهم بعضه على بعض بوجه عام ، حتى إن كثيرا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى ، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار.[20]

كما دل على ذلك حثه على الربط بين مقاصد السور المدنية ومقاصد السور المكية حتى يقف المجتهد على الأحكام الشرعية المطلوبة."والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي ، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه ."[21]

2-**سياق السورة:**أي أن كل سورة قرآنية تمثل وحدة لغوية متجانسة ، يجمعها سياق واحد ، هو الغرض من السورة ، الذي يرتبط بالسياق العام للقرآن الكريم ، وقد بين الشاطبي أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار ، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت ، وعليه أكثر سور المفصل ، وتارة يكون متعددا في الاعتبار بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة ، كسورة البقرة ، التي هي كلام واحد باعتبار النظم ، على الرغم من احتوائها على أنواع من الكلام ، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات ، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ، ومنها ما هو المقصود في الانزال ، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك.[22]

3-**سياق المقطع:**أي أن السورة القرآنية تتكون من عدة مقاطع، كل مقطع له غرض خاص، لكنه يتناسق مع سياق السورة العام.وقد بين الشاطبي أن السورة القرآنية قد تتعدد قضاياها، لكنها واحدة الغرض بالنسبة للسورة التي أنزلت فيها، وقد مثّل لذلك بسورة البقرة، وسورة المؤمنين، التي نزلت في قضية واحدة هي الدعاء إلى عبادة الله تعالى، وإن اشتملت على معان كثيرة، هي: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق، وتقرير النبوة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات أمر البعث والدار الآخرة، وأنه حق لا ريب فيه.[23]

4-**سياق القصة:**بين الشاطبي أن مساق القصة الواحدة يختلف بحسب اختلاف الأحوال ، فسورة المؤمنين مثلا قصة واحدة في شيء واحد هو تثبيت فؤاد النبي محمد عليه السلام ، لما كان يلقى من

عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة ، على الرغم من اشتمالها على عدد كبير من قصص الأنبياء عليهم السلام كنوح ، وهود ، وموسى ، وعلى الرغم من اختلاف أحداث القصة الواحدة.[24]

5-**سياق الآية :** بين الشاطبي أن كل آية من القرآن الكريم تحمل غرضا مستقلا ، حيث تتعاضد الآيات مع بعضها البعض ضمن نسيج محكم مشكلة غرضا واحدا مشتركا ." فالقضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد.فلا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ،.. .فإن فرّق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده."[25]

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن السياق المقالي يؤدي - عند الإمام الشاطبي –دورا هاما في التمييز بين المعنى الأصلي ، والمعنى التبعي في النص القرآني ، وهذا يعني أن وظيفة هذا السياق عنده هي: التفسير ، والتأويل ، والتعليل ، والترجيح بين المعاني ، وهو أمر واضح في كتابه الموافقات.

2-**السياق المقامي:**

وهو ما يعرف بسياق الحال ، ويقصد به :" كل ما يعين على فهم مقصد المتكلم لدى المتلقي ، من خلال الرسالة مستعينا في ذلك بكل ما لم يرد له ذكر من عناصر منطوقة في سياق الكلام"[26].أي يمثل العوامل الخارجية المحيطة بالحدث الكلامي.من متكلم ، وسامع ، ورسالة ، وانفعال ، وبيئة اجتماعية.

وفكرة المقام هذه ، تمثل حاليا محور الدرس التداولي ، لأنه يمثل الأساس الذي يقوم عليه الشق الاجتماعي من وجوه المعنى ، وهو الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث ، والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال.[27]

ولقد عبر الشاطبي عن هذا المعنى بعبارات عديدة منها: المقام ، والقرينة الحالية ، ودلالة الحال ، ومقتضيات الأحوال. وعلى الرغم من أنه لم يضع له تعريفا –كعادته - إلا أن معناه يتضح من خلال اعتماده عليه في الاستدلال على مقاصد القرآن الكريم ، وفي تحديده لعناصره ، وهي: حال المخَاطب والمخاطَب ، وموضوع الخطاب ، والظروف المحيطة بالخطاب كأسباب النزول ، وعادات

العرب وأعرافها حال التنزيل. إذا فالسياق المقامي ، عنده يطابق في عمومه المعنى الحديث لهذا السياق.

وبناء على ما سبق ، يمكن تحديد أنواع السياق المقامي عند الشاطبي فيما يلي:

1-سياق التخاطب:

ويشمل عنده كلا من المُخاطب والمخاطَب ، فمعرفة الكلام " إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطَب أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، لفظه واحد ، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك ، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ، ولا يدل على معناه إلا الأمور الخارجية ، وعمدته مقتضيات الأحوال : وليس كل حال يُنقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شيء منه ."[28]

لقد أشار الشاطبي في هذا القول إلى مسألة لسانية هامة ، مفادها أن الوصول إلى مقصدية الخطاب لا تتحقق إلا بوضعه في إطاره التواصلي بما يحمله من قضايا تفاعلية ، أي أن مقصد المتكلم أو السامع تحدده عملية التلفظ بما تحمله من قرائن مقالية ومقامية.

وهذه المفاهيم تعد من أهم وظائف **التداولية** حديثا ، ذلك أن هذه الأخيرة ، لا تدرس "البنية اللغوية ذاتها ، ولكن تدرس اللغة حين **استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة** ، أي باعتبارها **كلاما محددا** صادر من متكلم محدد وموجه إلى مخاطب محدد **بلفظ محدد** في **مقام تواصلي** محدد لتحقيق **غرض تواصلي** محدد ."[29]

ومن ثم ، يمكن القول إن مبادئ التداولية مجسدة عند الشاطبي في النقاط التالية:

- **مبدأ المقامية :**الذي يشمل مجموع الاعتبارات والظروف والملابسات المحيطة بالحدث اللغوي ، وتؤثر فيه ، بحيث لا تتجلى دلالة الكلام إلا في ظلها [30]، وقد عبر عنه بمقتضى الحال ، الذي يختلف باختلاف مقامات الكلام من مقام التقرير إلى مقام التوبيخ ، إلى مقام التهديد ، وغيرهم.

- **مبدأ القصدية:** وله علاقة بالمتكلم وقصده ، والسامع وتأويله ، والمقام وسياقاته [31]، وقد أشار إليه الشاطبي بحال الخطاب ، والمخاطب ، والمخاطَب ، أو الجميع.
- **مبدأ التخاطبية:أو الاستلزام الحواري:**إذا كان الكلام به معاني مضمرة ، يمكن كشفها بالحوار ، وقد بين ذلك الشاطبي ، حين دلّ على أن الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين.
- **الفعل الكلامي:**وهو كل ملفوظ يقوم على شكل دلالي ، إنجازي ، تأثيري. ويشمل فعل القول ، الفعل المتضمن في القول ، الفعل الناتج عن القول [32].وقد بين الشاطبي أن الكلام المنقول(فعل القول)، يحمل دلالات مختلفة (الفعل المتضمن)، يحددها حال المتكلم(الفعل الناتج).

2-سياق التنزيل:

ويصدق على الإلمام بأسباب النزول لأن معرفة التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن[33]، كما يصدق على ضرورة النظر- عند إجراء الدليل - إلى أحوال وأزمنة وعادات المكلفين لأن " المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ".[34]

كما يشمل مبدأ رعي الخصوصيات والنظر في عين الحالات ، فمقتضيات الأحكام إذا كانت ترجع إلى "حفظ الضروريات والحاجيات و التكمليات فتنزيل حفظها في كل محل على وجه واحد لا يمكن ، بل لا بد من اعتبار خصوصيات الأحوال والأبواب وغير ذلك من الخصوصيات الجزئية».[35]

فالجهل بأسباب التنزيل يوقع في الشبه والإشكالات ، وقد أورد لذلك عدّة شواهد[36].

3- سياق المقاصد:

وهو الذي يعين على معرفة معاني الأحكام الشرعية المتصلة بالمقاصد العامة للتشريع القرآني ، فبموجبه يتعيّن النظر في العلل و تفاريق الأمارات ، وأوجه الحكم الجزئية والمصالح الكليّة التي تتجسد معانيها في مقاصد الشرع السّامية. جاء في الموافقات: «يدل عليه المساق الحكمي أيضا ، وهذا المساق يختص بمعرفته العارفون بمقاصد الشارع »[37]، تمييزا له عن المساق اللغوي الذي يدرك بمطلق الفهم العربي في الاستعمال [38].

4-**السياق الاجتماعي:**نبه الشاطبي إلى ضرورة مراعاة عادات العرب في تحديد معاني الخطاب القرآني ، ذلك أن القرآن الكريم نزل بلسانها ، " فلا بدّ أن يكون على ما يعهدون والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية ."[39]

ومما سبق يتبين لنا أن الإمام الشاطبي قد وعى أهمية السياق – بنوعيه - في فهم النص القرآني وبيان معانيه ، ذلك أن وظيفة السياق عند الأصوليين هي:"الإرشاد إلى تبيين المجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"[40].

وبعد رصدنا لأنواع السياق عند الإمام الشاطبي ، نصل إلى رصد محددات المعنى عنده ،والتى من شأنها أن تفسر لنا آلية اقتباس المعاني من النص القرآني.

ثالثا:محددات المعنى:

ويقصد بها الآليات أو القواعد التي اعتمدها اللغويون والأصوليون في تحديد المعني المقصود من الكتاب و السنة [41] ، وهذه المحددات - عند الشاطبي - هي:

أ-**قواعد اللغة العربية:**وهي القواعد النحوية والصرفية والمعجمية والبلاغية.قال الشاطبي:"ولا أعني بذلك النحو وحده ، ولا التصريف وحده ، ولا اللغة ، ولا علم المعاني ، ولا غير ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللسان ، بل المراد جملة علم اللسان ألفاظ أو معاني...وبيان تعيين هذا العلم ما تقدم في كتاب المقاصد من أن الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم.لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز ."[42]

ب-**فعل النبي صلى الله عليه وسلم:**بين الشاطبي أن النبي عليه السلام كان مبينا لأحكام الشريعة بقوله وفعله ، وأن بيانه صحيح لا إشكال فيه ، لأنه بعث لذلك [43] .قال تعالى : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم " (النحل:44).

ج - **أفعال الصحابة :** يرى الشاطبي أن الصحابة إذا أجمعوا على ما بينوه فلا إشكال في صحة بيانهم ، للأسباب التالية:

أحدهما:معرفتهم باللسان العربي ، فإنهم عرب فصحاء ، لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم ، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان.

والثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل ، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة ، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية ، وأعرف بأسباب التنزيل ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب.[44]

د - **معهود العرب:**

يؤكد الشاطبي على ضرورة **معرفة معهود** العرب في لسانها ، لفظاً ومعنى وأسلوبا ، مع وجوب الالتزام بذلك المعهود أو العرف العربي في فهم الشريعة ، وأنه لا يصبح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه العرب[45]: فقال : " إنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين - وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم -...وهذا جارٍ في المعاني ، والألفاظ ، والأساليب "[46]، ويقول في موضع آخر مؤكدا هذه القناعة : " كل معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء لا مما يستفاد منه ، ولا مما يستفاد به ، ومن ادّعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل ."[47]

ومما سبق يتبين لنا أن الشاطبي قد رسم الحدود الزمانية والمكانية واللغوية والعرفية للمعهود ، مبيّنا أن المعهود المقصود هو عادة العرب في التخاطب أيام التشريع ، وعلى هذا فإن معرفة الخطاب الديني تتطلب درجة من الإجادة والمعرفة بخصائص اللغة العربية ودقائقها ، وحياة العرب وعاداتهم ، وأثر التعبيرات اللغوية في تفكيرهم ، واعتقادهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، وسياقات الخطاب نفسه وأسباب وروده[48].ومن ثم يمكن تحديد الأسس التي يبنى عليها الاستناد إلى معهود العرب في تلقي الخطاب الديني في النقاط التالية:

- استقراء معهود استخدام الكلمة في القرآن والحديث واللغة العربية الفصحى التراثية.

-استقراء معهود تلقي الخطاب عند الصحابة والتابعين لهم ، لأنهم عاصروا نزول القرآن والبيان النبوي.

- معرفة أساليب الخطاب وأوجه المخاطبة في القرآن والحديث.

- معرفة التطبيقات العملية السابقة للمفاهيم المستفادة من الخطاب الديني.

- معرفة القرائن المقالية والحالية والعادات الخطابية العربية.

- معرفة الخلفية الثقافية للعرب وعاداتهم اللغوية.

- معرفة العوامل النفسية والاجتماعية والفكرية المؤثرة في تلقي الخطاب وصياغته ، وهو ما ذهب إليه الشاطبي عندما وصف الشريعة بالأمية ، وتأكيده للزوم فهمها وفق فهم الأميين لها [49] ، تأثرا بحياتهم الاجتماعية ، وأحوالهم النفسية ومستوياتهم الفكرية ، على الرغم من اعتراض الكثير من العلماء على القول بأمية الشريعة.

- التوفيق بين معهود استخدام مكونات النص في التراث ، ومعهود استخدامها حديثا.

- استبعاد التأويلات الباطنية الشيعية والصوفية وغيرها ، لأنها لا تستند على معهود العرب في تلقي الخطاب ، بل تستند إلى خصائص دلالية خارجة عن المجال التداولي لهذا المعهود أيام التنزيل.[50]

إضافة إلى ما سبق ، نبه الإمام الشاطبي إلى أن من مظاهر معهود العرب في خطابها ما يلي :

1- أنها " لا ترى الألفاظ تعبدًا عند محافظتها على المعاني ، وإن كانت تراعيها أيضا ، فليس أحد الأمرين عندها بملتزم ، بل قد تبني على أحدهما مرة ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً في صحة كلامها واستقامته "[51]، والدليل على ذلك أشياء كثيرة ، منها : " أن من شأنها الاستغناء ببعض الألفاظ عمّا يرادفها أو يقاربها ولا يعد ذلك اختلافاً ولا اضطراباً ، إذا كان المعنى المقصود على استقامة. والكافي من ذلك نزول القرآن على سبعة أحرف كلّها شافٍ كافٍ".[52]

2- أنها " تخاطب بالعام مراداً به ظاهره ، وبالعام يراد به العام ويدخله الخصوص ، ويستدل على ذلك ببعض ما يدخله في الكلام ، وبالعام يراد به الخاص ويعرف بالسياق ، وبالكلام ينبئ أوله عن آخره ، وآخره عن أوله ، وأن تتكلم بالشيء تعرفه وبالمعنى دون اللفظ كما تعرف بالإشارة ، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة ، والمعاني الكثيرة بالاسم الواحد. "[53]

في هذا القول ، تلميح من الشاطبي إلى بعض المصطلحات الدلالية التي يتجلى من خلالها اهتمام العرب بالمعنى ، ومن هذه المصطلحات : الترادف والذي يعني دلالة الألفاظ المفردة على شيء واحد باعتبار واحد [54] ، والاشتراك اللفظي وهو كون اللفظ الواحد دالاً على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالة متساوية عند أهل اللغة[55] ،والعموم الخصوص ، والإشارة دون التصريح. وهي في سنن العرب أن «تشير إلى المعنى إشارة ، تومئ إيماء دون التصريح"[56].

3-ومن معهودها أيضا ، أن لا تكلّف في الألفاظ والمعاني إذ أن الناس في الفهم وتأتي التكليف ليسوا على وزن واحد ولا متقارب [57] . وكل تجاوز لذلك قد يؤدي إلى تأويلات خاطئة ، ومن ثمّ عدم فهم مقاصد الخطاب القرآني ، ذلك " أن الشريعة قد اشتملت على ما تعرفه العرب عامة ، وما يعرفه العلماء خاصة ، وما لا يعلمه إلا الله تعالى"[58].

من هذه التعاريف وغيرها ، نصل إلى أن مظاهر المعهود عند الشاطبي لا تقتصر على الخصائص اللفظية والدلالية وحسب ، بل تعول أكثر إلى الخصائص التركيبية والأسلوبية والسياقية و المقامية ، لما لها من تأثير في تحديد المعاني المقصودة من الخطاب.

وفيما هذا الخطط يوضح لنا أنماط محددات المعنى عند الإمام الشاطبي :

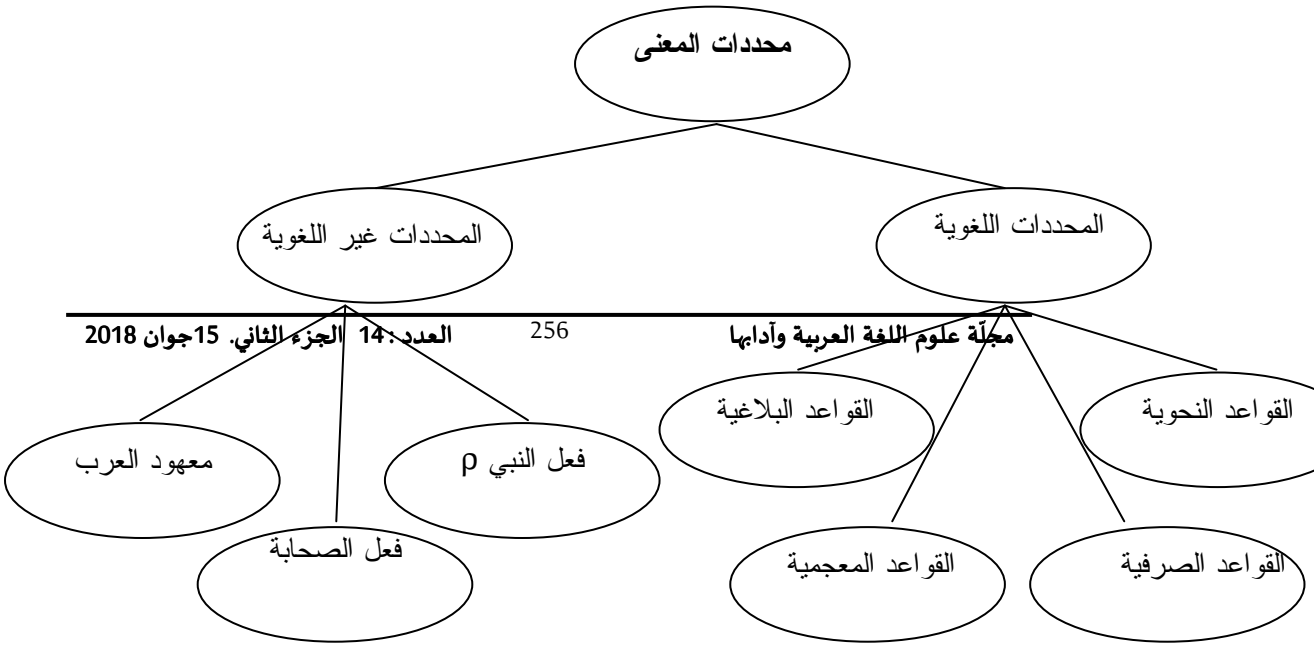

وهكذا يتضح لنا مدى اقتناع الشاطبي بأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، و أنها تؤدي دورا مهما في حياة المجتمع ، من خلال تمثله الواضح لعناصر السياق اللفظية و الاجتماعية ،وبيان دورهما في تحديد مقصدية الخطاب.

الهوامش:

[1] - خالد عبود حمودي الشيخلي ،نظر في نظرية السياق –دراسة بين القدماء و المحدثين – الجامعة المستنصرية.

[2] - ينظر: صاحب أبو جناح ،السياق في الفكر اللغوي عند العرب ،مجلة الأقلام ،العدد 3-4،السنة:1992،ص:116.

[3] - ينظر : يحي أحمد ،الاتجاه الوظيفي و دوره في تحليل اللغة ،مجلة عالم الفكر ،بيروت ،المجلد 2،العدد3،1981،ص:82.

[4] - ينظر : ستيفن أولمان ،دور الكلمة في اللغة ، تر: كمال بشر ،مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1990 ، ص :62

[5] - ينظر :أحمد مختار عمر ،علم الدلالة ،عالم الكتب ،القاهرة ،1991، ط 3 ، ص:57.

[6] - ينظر: نادية رمضان النجار ، القرائن بين اللغويين و الأصوليين ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،2015 ،ط1،ص:385.

[7] - ينظر: عبد الحميد العلمي، منهج الدرس الدلالي عند الامام الشاطبي ،وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، المملكة المغربية ،2001 ، (دط) ، ص:234 .

[8] - ينظر: خالد عبود حمودي الشيخلي ،نظر في نظرية السياق –دراسة بين القدماء و المحدثين – الجامعة المستنصرية.

[9] - أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة تح: عبد الله دراز ،طبعة جديدة كاملة في مجلد واحد ،دار الكتاب الحديث ،القاهرة-الكويت-الجزائر،2004 ، ط1 ، ص:628.

[10] - ينظر: عبد الحميد العلمي ، منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي ، ص:235.

[11] - ينظر: نادية رمضان النجار، القرائن بين اللغويين والأصوليين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015،ط1،ص:382.

[12] - ينظر: أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات، ص:628

[13] - ينظر: نادية رمضان النجار، الدرس الدلالي قديما وحديثا، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، 2016،(دط)،ص:57-60.

[14] - فريد عوض حيدر، فصول في علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005، ط1، ص:119.

[15] - ينظر أبو اسحاق الشاطبي ،الموافقات، ص:716.

16 – المصدر نفسه ، ص: 269

17- المصدر نفسه، ص: 631.

18- ينظر: نادية رمضان النجار، القرائن بين اللغويين والأصوليين، ص:382،383.

19-المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار وائل للنشر، عمان، الأردن،2008،(دط)،ص:15.

20- ينظر: أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات، ص:720،721.

21- المصدر نفسه، ص:712

22- ينظر: المصدر نفسه، ص:717،718.

23-ينظر: المصدر نفسه، ص:718.

24- ينظر: المصدر نفسه،ص:720.

25- المصدر نفسه، ص 675، 676.

26- نادية رمضان النجار، القرائن بين اللغويين والأصوليين، ص:400.

27- ينظر: المرجع. نفسه، ص:403.

28- مسعود صحراوي ،التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار التنوير، الجزائر،2008،ط1،ص:37.

29- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات ال تداولية، ص:193.

30- ينظر: المرجع نفسه، ص:207.

31- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص:54،-56.

32- ينظر: أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص678.

33- ينظر: أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص678.

34- المصدر نفسه، ص: 678.

35- المصدر نفسه، ص: 679.

36- المصدر نفسه، ص: 676.

37-أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص: 256.

38- ينظر: عبد الحميد العلمي،منهج الدرس الدلالي عند الإمامالشاطبي،ص:238.

39- أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص: 258.

40- نادية رمضان النجار، القرائن بين اللغويين والأصوليين، ص:435،436.

41- ينظر: زعطوط حسين، توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، رسالة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح،2012،2013،ص:28.

42- أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص:789.

43- المصدر نفسه ، ص:670

44- ينظر: المصدر نفسه، ص:670.

45- ينظر: صالح سيوعي، النص الشرعي وتأويله، الشاطبي أنموذجا، ص:69.

46- أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص: 265.

47- المصدر نفسه، ص: 703.

48- ينظر: أحمد شيخ عبد السلام، معهود العرب في تلقي الخطاب،ص:10،13.

49- ينظر: أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص:258.

50- ينظر: أحمد شيخ عبد السلام، معهود العرب في تلقي الخطاب،ص:14-17.

51- أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات ، ص:266.

52- أحمد شيخ عبد السلام، معهود العرب في تلقي الخطاب،ص:14-17.

53- أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات ، ص:791 .

54- ينظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تعليق محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون – منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، 1986، 402/1.

55- ينظر: المصدر نفسه، 369/1.

56- المصدر نفسه، 338/1.

57- ينظر: أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات، ص:267.

58- المصدر نفسه، ص:271